مركز العترة التخصصي للدراسات القرآنية (معتقد) 2

السيد محيي الدين المشعل

الحوارات الأسرية في القرآن الكريم

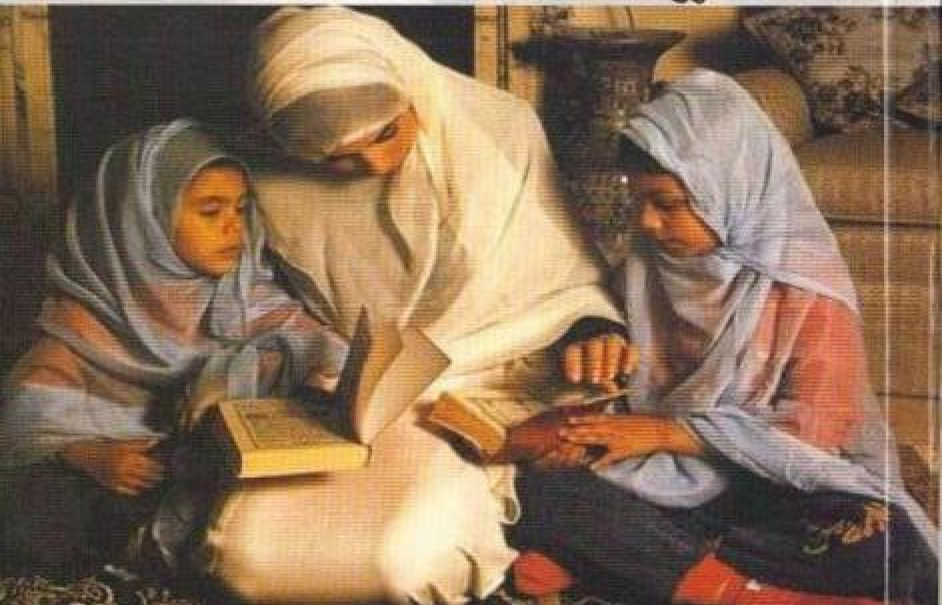

دار العصمة

الحوارات الأسرية
في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز العترة التخصصي للدراسات القرآنية (معتقد) 2

الحوارات الأسرية في القرآن الكريم

السيد محيي الدين المشعل

دار العصمة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

دار العصمة/كتب - قرطاسية - ترجمة - طباعة - خدمات أخرى
مملكة البحرين - السنابس
daralesmah@hotmail.com - ٠٠٩٧٣/٣٩٢١٤٢١٩ - ٠٠٩٧٣/١٧٥٥٢١٥٦

مدخل

الحوارات الأسريّة

يمثّل القرآن الكريم من أوله لآخره ملاحم في الحوار، تعلم الناس أدب الحوار، وأصوله، ومبادئه، والمنهج الصحيح في تعاطيه، وتفتحنا على تجارب الحوار من قبل أرقى الناس مستوى وهم الأنبياء وأتباعهم، مع أدناهم مستوى وهم الطغاة والجبابرة، والملأ الذين من حولهم، كما تفتحنا على أصل أساسي في التحاور الذي ينطلق من خلال البحث عن الحق والحقيقة على أساس قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ/٢٤)، كما وتوجّه البشر كل البشر إلى أهمية الحوار وضرورته، ولا بدية تحققه حتى بالنسبة لمن يمثلون علية المجتمع بالمعايير البشرية، وذلك من خلال ما أتى به القرآن الكريم من حوارات بين عظيم العظماء، وجبار الجبابرة، وهو الله تعالى مع كثير من خلقه، بل مع الكثير ممن حاربوه تبارك وتعالى، سواءً كان بشكل مباشر كما في الحوار الذي ينقله القرآن الكريم بينه تعالى وبين إبليس، أم بشكل غير مباشر كما في حوارات الأنبياء التي تنقل الكلام الإلهي مع الطغاة.

ومن البحوث الحوارية في القرآن الحوارات التي جرت في أسر الأنبياء عليهم السلام بالخصوص، وهي تمثل دروسًا ومواد نستطيع من خلالها أن نقوم علاقاتنا الأسرية، ونرتقي بها إلى المراتب العالية جدًّا على مستوى الأسرة النموذجية.

وسنرى أن الحوارات التي حصلت في أسر

الأنبياء عليهم السلام، لا تمثل كلها حالات إيجابية في مادة الحوار ونتائجه، ولكنها كلها تمثل دروسًا ومواعظ قيمة، لها أثر كبير على واقع الأسرة وتطورها، فإن الحوار الإيجابي سوف يحقق نتائج إيجابية لمن يريد الاقتداء بالأسرة النبوية فيه، كما أن الحوار الذي كانت نتائجه سلبية وغير مقبولة، سوف يكون رادعًا عن الوقوع في نفس النتائج التي وقعت فيها أفراد أسر بعض الأنبياء عندما تأثروا به وبنتائجه.

ونحن في هذه المقالة سوف نقصر الحديث على الحوارات التي تناسب بحثنا، وسنقف عند مجموعة من الحوارات التي جرت في أجواء أسرية بما فيها من سلبيات وإيجابيات، لنستلهم منها مجموعة من العبر والدروس، والمواعظ التي تؤثر على سيرنا الأسري، ونوظف عوامل القوة فيها، وننبذ عوامل الضعف التي في بعضها عن أسرنا، وعوائلنا.

وبحسب التتبع نجد أن هناك مجموعة حوارات أسرية نقلها لنا القرآن، جرت بين مختلف الأشخاص الذين هم في الأسرة، كالحوار بين الأخوان، أو الأب وأبنائه، أو الخال وابنة أخته، أو الأولاد مع أبيهم، وغيرها، وسوف ننقل بعض هذه الحوارات.

حوار الاهتمام والتفقّد

زكريّا ومريم عليهما السلام

قال تعالى: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران/٣٧)

تتحدث الآية عن حوار بين زكريا ومريم التي تربطه بها رابطة الخؤولة على بعض الروايات، وفحوى الحوار حول الحالة، أو (الظاهرة) الغريبة التي رآها زكريا عند مريم، فأحب أن يستفسر عنها، فقال لها، من أين لك فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، كما في تفسير الرزق على بعض الأقوال[1]، فقالت هو من عند الله، وعللت ذلك بالقول: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»، وهذه ميزة من ميزات الحوار القرآني، وهو أنه استدلالي دائمًا إذا كان من قبل المؤمنين.

وقد تميّز هذا الحوار بالثقة الواضحة، إذ لم يبدأ متهمًا لها بأيّ تهمة كما اتهمها قومها عندما أتتهم تحمل الولد، كما قال تعالى: (فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) (مريم/٢٧- ٢٨).

---

(١) قيل إنه كان فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف في قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن اسحق.

فلم ينطلقوا من الثقة حتى إذا رأوا ما يزلزلها تراجعوا عنها، بل انطلقوا من فقدان الثقة وانعدامها، وهو أمر يحذر القرآن منه في الكثير من آياته، لما فيه من النتائج الخطيرة، كما أننا نجد أن هذا الحوار «حوار زكريا ومريم» الذي كان في أجواء مشحونة بالثقة والمحبة قد مثل لزكريا بابا لطلب الولد من الله تعالى، كما نصت الآية على ذلك:

قال تعالى: (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ) (آل عمران/٣٨).

فكانت فائدة هذا الحوار أن زكريا توجه إلى رحمة الله الواسعة التي تحقق ما قد يتصوره بعض الناس غير ممكن، وهذا لا يعنى أن زكريا لم يكن يتيقن بذلك لكن كان حال مريم أشبه بالمحفز له لأن يدعو الله تعالى في أن يرزقه ذرية طيبة.

الدرس التربوي العملي

فخلاصة الدرس من هذا الحوار هو أن المربي إذا رأى في أسرته أي ظاهرة تسترعي الانتباه، وتلفت النظر، فعليه أن يتعرف عليها من خلال الحوار، فإنه سيقف على الكثير من الفوائد، فإن كانت سلبية فإنه سيتمكن من معالجتها من خلال الحوار، الذي سيتعرّف على ضوئه على الأسباب، ومن ثم يشخص العلاج، وإن كانت إيجابية كما هو الحال بالنسبة

لواقع مريم عليها السلام، فإنه سوف يوظفها لنفسه كي يستفيد منها، كما فعل زكريا ذلك، أو يوظفها ليستفاد منها بشكل عام.

ونقصد بالظاهرة التي تسترعي الانتباه ما هي أعم من الظاهرة السلوكية أو الفكرية، أو حتى الحاجات والأشياء الغريبة غير الموجودة أساسًا في نطاق البيت الذي يتحرك فيه الأبناء والبنات.

حوار المبادئ

يعقوب عليه السلام وأبناؤه

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة/١٣٣).

ففي هذه الآية يحاور الأب أبنائه، موجهًا لمبادئهم توجيهًا صحيحًا، ودقيقًا، في الجهة السليمة والصحيحة، وهي الدوام على اعتناق الإسلام، والالتزام بمبادئه، ومن الواضح أن هذا الحوار يكشف عن حالة دائمة ومستمرة من المتابعة من قبل الأب لأبنائه، حتى إذا حضره الموت وقرب منه، لم يهمل هذه الناحية، وأكد عليهم فيها،وأراد أن يفارق الدنيا وهو مطمئن على مستقبل أبنائه الديني، ففي هذا الحوار أكبر درس لنا في متابعة أسرنا من حيث القيم والمبادئ التي يحملونها، وضرورة التأكيد عليهم في الالتزام بها والدوام عليها.

فقد كان الاهتمام واضحا من قبل الأب، كما كان الأبناء متفاعلين تمام التفاعل مع وصية أبيهم من خلال جوابهم الذي كان جوابا يثلج الصدر، لما فيه من التأكيدات الكثيرة، بالإضافة إلى التذكير بمؤسسي المبدأ الذي هو الإسلام.

الدرس التربوي

خلاصة الدرس من هذا الحوار هو أن القيم على

الأسرة لا بد له من المتابعة الحثيثة لأسرته، متلمسا في ذلك أجمل الأساليب، وأسلس المناهج، حتى يكون التفاعل من الطرف الآخر الذي تلقى إليه المواعظ والنصائح، كالتفاعل الذي أبداه أبناء يعقوب عليه السلام، مع أبيهم إذ أجابوه بما يثلج صدره ويطمئن قلبه، وقد حقق أمنيته في أن لا يخرج من هذه الدنيا إلا وأبناؤه يحملون الرسالة التي كان يحملها، ويتعاهدها.

حوار العقل والبرهان

إبراهيم عليه السلام وأبيه

(١) (وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ
تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ
ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ
ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ
ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ
تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ
كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ
إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ
صِدۡقٍ عَلِيّٗا) (مريم/٤١- ٥٠).

(٢) (وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةًۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي
ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ) (الأنعام/٧٤).

(٣) (وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا
عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ)
(الأنبياء/٥١- ٥٤).

(٣) (وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ)
(الشعراء/٦٩- ٧٠).

يتميّز الحوار الذي نقل في سورة مريم بالرقّة والشفافية

التامة، والإشفاق، حيث كان عليه السلام في كل جملة يتحدث بها يفتتحها بقوله يا أبت على رغم أنه لم يكن أباه، كما كان عليه السلام يظهر إشفاقه من خلال قوله أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ، كما يتميز بالصراحة والوضوح، والاستدلال، حيث كان يقيم في كل دعوى يدعيها دليلا على مدعاه.

ومن ميزات الحوار أيضًا أنه لم يتشنج فيه برغم الحالة الانفعالية التي كانت تهيمن على أبيه (عمّه)، ففي الوقت الذي كان العم يهدد فيه بالرجم، وقد فسر علماء التفسير الرجم هنا بالرجم في الكلام، وهو القول الفاحش والشتم، والكلام القبيح، والهجران[٢]، كان جواب إبراهيم هو الاستغفار والتسليم، على أبيه (عمه).

الدرس المستفاد من الحوار الإبراهيمي على مستوى الواقع الأسري

هو متابعة الأبناء لواقع الأسرة بشكل عام، وإن كانت الآيات نقلت حوار الابن مع العم، لكن فيها إشعار بضرورة التقويم الأسري على صعيد جميع أفراد الأسرة، إذا

(٢) قال المفسرون في قوله تعالى:(واهجرني مليا، أي اتركني زمنا طويلا، أو دهرا، وقيل اهجرني مليا، أي اتركني وأنت سالم معافى من غير أن أقول لك كلاما قبيحا.انظر:جامع البيان للطبري في تفسير الآية.

وجد الانحراف في الأسرة، ولكن مع كامل التلطف في علاج ذلك الانحراف، وعدم شحن الأجواء بما يثير الأزمات، بل لو أدى ذلك الحوار الناشئ من محاولات الإصلاح إلى حالة من التشنج، والانفعال من قبل المنحرفين في الأسرة، ينبغي على المحاور المصلح أن يمتص الأزمة بحكمته وحنكته، كما فعل إبراهيم عليه السلام ذلك مع أبيه برغم التهديدات الكثيرة التي أصدرها العم تجاه ابن أخيه.

وأما بقية الحوارات التي كانت مع أبيه وقومه، فهي لا تخلو من شدة حيث وصفهم بالضلال المبين في آيتين، والظاهر أن هذا بعد أن أتعبوه في الجدال، والمخاصمة، مع أن قوله ليس فيه ما يستشعر منه الإرهاب الكلامي كما يحلو للبعض أن يعبر، بخلاف كلام أبيه وقومه، فإنهم إضافة إلى الإرهاب الكلامي الذي مارسوه ضد إبراهيم عليه السلام، فإنهم أيضًا مارسوا معه أنحاءً أخرى من الإرهاب، كاتهامه بتهم متعددة، وتهديده بأشكال التهديدات، وكذلك ممارسة إلقائه في النار، التي جعلها الله بردًا وسلامًا عليه عليه السلام.

الملحمة الحواريّة في

سورة يوسف

كما أشرنا في بداية المقالة أن القرآن الكريم يمثل مجموعة ملاحم حوارية في مختلف الموضوعات المرتبطة بالهداية الإلهية للبشر، كما أن مجموعة من السور القرآنية اتسمت بأكملها بهذه الخصوصية خصوصية الحوار، ومن هذه السور سورة يوسف، حيث نقلت مجموعة من الحوارات الأسرية التي تكشف عن واقع أسرة ليست بالعادية، عصفت ببعض أفرادها عواصف التجرد عن التقوى والورع، ورقابة الله في النفس والغير، فأدت بها إلى أن جعلها القرآن الكريم سورة تتلى إلى يوم القيامة آناء الليل والنهار، لتمثل الموعظة والعبرة والذكرى، فهي كما خصها القرآن الكريم بالوصف، أحسن القصص.

وسنحاول نحن في هذه الوقفات مع آيات هذه السورة أن نعيش أجواء تلك الحوارات التي لا تخلو من السخونة بل الحرارة في كثير من مفاصلها، سواءً كانت حرارة الحب والإخلاص، أو حرارة الحقد والحسد وعدم التقوى.

وقد قسمنا الحوارات إلى حوارات ما قبل الجريمة، وحوارات ما بعد الجريمة، وهو ترتيب أو تقسيم تسلسلي، يكشف عن حالة الإنسان المجرم قبل الجريمة وبعدها، وكيف أن الله تعالى يذله بجريمته ولو بعد حين.

حوارات ما قبل الجريمة الكبرى

حوار الثقة والنصحية، والبشارة

(قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ) (يوسف/٤- ٦).

المستفاد من هذا الحوار أن الوليد الصغير الذي تقول بعض الروايات أن عمره كان ست سنين، كان يركن إلى أبيه في بث همومه الخاصة وأسراره، من خلال ما عرضته القصة من إبلاغه أبيه رؤياه، دون غيره، وهو على خلاف ما نراه كثيرا من أن الأبناء والشباب بحسب العادة يبثون أسرارهم وهمومهم الخاصة لأصدقائهم، وهذا الأمر إنما جرى بين يوسف وأبيه، لأن هناك ثقة تمكن الأب أن يزرعها في نفس ولده الصغير، وفي مقابل هذه الثقة التي انطلق من خلالها يوسف الصديق مع أبيه، كانت النصيحة الأبوية الناشئة عن اختزال كل مواطن الخبرة،والتجربة، فنهاه عن إخبار إخوته برؤياه، لما في الإخبار من أثر سيّء عليهم قد يثير حفيظتهم عليه، خصوصا أن هناك من يحاول أن يوظف كل شرخ قد يحصل بين أفراد الأسرة، لتأزيم العلاقات، وقطعها، وهو ذلك العدو المطرود عن رحمة الله الذي حذر القرآن منه كثيرا وهو الشيطان، ثم بشره أيضًا بما توحيه له الرؤيا من خلال ما علمه الله تعالى.

الدرس المستفاد من هذا الحوار

من أوضح ما يمكن استفادته من هذا الحوار هو ضرورة تكوين العلاقة بين الأب والأولاد منذ نعومة أظفارهم حتى تكون عملية الانفتاح عملية محكمة بين الأب والأولاد في مراحل أعمارهم المتأخرة، التي يحتاجون فيها للنصيحة، وتبادل الخبرة، من دون حاجة إلى أن يرجعوا إلى غيرهم ممن هم في نفس مستوياتهم، إذ لن يقدموا لهم في ذلك المجال خبرة تزيد عن خبرتهم، ومعرفتهم وتجربتهم.

حوار المؤامرة والمكيدة

(لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ) (يوسف/٧- ٩)[١].

هـذا جانـب مـن الحـوارات الأسـرية الـتي نقلـها القـرآن الكـريم ليحذر منها، لما فيهـا مـن انعـدام الثقـة مـن قبـل الأبنـاء تجـاه أبـيهم مـن دون مـبرّر صـحيح، وإن كـانوا هـم قـد بـرروهـا بمبرّر غير صحيح، وهو أيضًا أمر مهم ينقله لنا القرآن، وهو عدم الدقة في المقاييس، حيث بنوا مقياس الحبّ والتفضيل

---

(١) هناك من المفسرين من يحاول أن يخطئ نبي الله يعقوب عليه السلام في تعامله مع أبنائه من حيث أنه أظهرحب يوسف وأخيه، الأمر الذي كان سببا في حقد أخوتهما عليهما، وحصول تلك الجريمة، فكان ينبغي على يعقوب عليه السلام أن لا يظهر هذا الحب حتى لا يتسبب في مثل هذه الجريمة، لكن هذا الكلام لا يمكن لنا أن نقبله في حق نبي وصفه الله تعالى بأوصاف مختلفة من الكمالات كالإحسان والإخلاص وغيرهما، والذي نقوله في تبرير ذلك الإظهار منه لحبه ليوسف بالخصوص هو أن إظهار فضل ذي الفضل مطلوب، كما فعل النبي ص عندما أظهر فضل ذوي الفضل من المؤمنين، كما أن القرآن قد جعل المناط في التفضيل هو التقوى، قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) (الحجرات/١٣)، والخلاصة التي نريد تأسيسها في الأسرة في قضية إظهار تفضيل بعض الأبناء أو الأفراد على بعض، إذا كان مبررا بمبرر موضوعي، وبمقياس من المقاييس الإلهية، أو العقلائية، فلا إشكال فيه، إنما إظهار الحب أو التفضيل غير المبرر ذلك هو المحذور.

على القوة والانتاج المادي، بينما المقياس الذي ينص عليه القرآن هو مقياس التقوى، كما في قوله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَنكُمْ) (الحجرات/١٣).

ويستفاد من الحوار في هذا المقطع من الآيات خطورة التخطيط السيّء في الأسرة بعيدا عن علم رب الأسرة والفرد الأكمل عقلا ومعرفة فيها، فهم قد جلسوا وخططوا من أجل أن ينهوا نفسا عظيمة من نفوس الأنبياء، كل ذلك لتوهم أن هذا العمل الشنيع هو الذي سيؤدي بأبيهم إلى أن يصب حبه عليهم بعد ذلك، وقد أخطأوا أكبر الخطأ في ذلك، كما أنهم أخطأوا خطئا فادحا آخر أيضًا وهو أنهم حدثوا أنفسهم بالتوبة بعد الجريمة النكراء، وهم يخططون لها، والتوبة إنما كتبها الله تعالى للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب.

الدرس المستفاد من هذا الحوار

وبنظرة تأملية في المقطع المتقدم من الآيات نستفيد ضرورة التواصل بين أفراد الأسرة جميعا، وعدم التخطيط أو التنفيذ بعيدا عمن هو أكملهم عقلا، وأكثرهم تجربة وأوسعهم خبرة، كما أن المسار الصحيح في علاج المشكلة التي يتحسس منها بعض أفراد الأسرة هو الحوار العام الذي

ينفتح على أطراف المشكلة وأشخاصها للتعرف على حقيقتها، وهل أنها مشكلة حقيقة أم أنها توهمات وتشكيكات وظنون كاذبة.

حوار التخفيف من الجريمة

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ (يوسف/١٠).

يتميّز هذا المقطع من الحوار بالتخفيف من الجريمة، إذا كان بالإمكان فعل ذلك، وهو ما تمكن أكبر الأخوة من فعله، حيث حاول أن يثنيهم عن ارتكاب جريمة القتل والتصفية، حيث أنهم كانوا يريدون القضاء على يوسف بإحدى الطريقتين المتقدمتين، القتل، أو الطرح في أرض مقفرة ومضيعة، وهو ما يعطيه تنكيرها، لكن هذا الأخ الأكبر تمكن من التدخل للتخفيف من الجريمة، الأمر الذي يعطينا درسا واضحا في الاستفادة، حيث أن الإنسان قد يتورط في جلسة تخطط لجريمة، فيتمكن من القيام بدور المخفف أو المانع عنها فليفعل، وإذا كان ذلك الأمر في الأسرة فهو أوضح أثرًا.

حوار الحيلة والكذب

(قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ) (يوسف/١١- ١٤).

في هذا المقطع من الحوار نتلمس الروح التي تتذرع بالكذب، والخديعة للوصول إلى ما تريد، من مآرب، وآثام، ففي الحوارين المتقدمين، نرى كيف نقل لنا القرآن الكريم التخطيط الذي اتفقوا عليه وهو أن يلقوا يوسف في غيابت الجبّ، بعد الاتفاق على الصيغة المخففة من الجريمة، وبذلك يبعدوه عن أبيه ويخلو لهم وجه أبيهم بحسب ما يتصورون، لكنهم في هذا الحوار الذي يكتنفه التظاهر بالصدق والإشفاق على يوسف، ودعوى النصيحة والحفظ، يحاولون خداع أبيهم للقيام بالجريمة من خلال طلب إرسال يوسف معهم.

ولكن الأب بما علمه الله تعالى، كما في الآيات القادمة في قوله تعالى:وإنه لذو علم لما علمناه، قد ألفتهم إلى تخطيطهم، ومؤامراتهم، واتفاقهم على أن يدعوا أن الذئب هو الذي أكله، فأشار إلى الحيلة التي سوف يحتالون بها على أبيهم، وفي ذلك أكبر التنبيه منه عليه السلام لهم، علهم يتراجعون عن غيهم ومضيهم في الجريمة، إلا أنه قد أفلحت لو ناديت

حيًّا، لكن لا حياة لمن تنادي.

وربما يحلو لبعض المفسرين أن يدعي أن يعقوب هو الذي أرشد أبنائه إلى التذرع بدعوى أكل الذئب ليوسف إذ أنه أرشدهم إليها حين قال لهم:وأخاف أن يأكله الذئب، لكن هذا لا يصح لما بيناه من أنه عليه السلام أراد أن ينبههم على جريمتهم التي خططوا لها، ولو سلمنا جدلا ذلك، فهذا لا يعني أن كل شخص يستفيد من كلمات الآخرين مبررا يقوم بجريمة بواسطة ذلك المبرر.

ومما يستفاد من الحوار هذا أنّ يعقوب كان رقيقًا معهم حيث أنّه لم يجرحهم بكلمة صريحة تبيّن لهم أنّهم هم الذين سيتسبّبون في حزنه، وبكائه المستقبلي الطويل على يوسف، إذ قال لهم إنه ليحزنني ولم يقل أنتم سوف تحزنونني، وهذا من الأدب الراقي في التعامل الأسري من قبل الآباء تجاه أبنائهم.

حوارات ما بعد الجريمة

تلك الحوارات الأسرية التي تقدمت كانت حوارات قبل الجريمة العظمى، وأما هذه الحوارات القادمة فهي التي تلت الجريمة، وحيث أنها مما ينبغي أن يستفاد منه في الأسرة، فنحن سنحاول أن نتفيّأ ظلالها لننجو من حرّ شديد، ونار وقودها الناس والحجارة، أذا ما وظفنا هذه الحوارات توظيفًا سليمًا ودقيقًا.

حوار الكذب المكشوف

(فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) (يوسف/١٥- ١٨).

في هذا المقطع من الحوار لم يتمكّن أخوة يوسف أن يخفوا كذبهم، بل كان كذبهم كذبًا صراحًا، حيث أنهم قد تعهدوا بحفظ يوسف قبل الخروج به، ووسموا أنفسهم بالخسران لو ضاع يوسف منهم، وإذا بهم يأتون بدونه، ويدعون دعوى واضحة الكذب من خلال الملابسات التي نقلوها، كما دلت الروايات على ذلك أيضًا، ومما يلوح بكذبهم، قولهم ولو كنا صادقين، ولذلك لم يتريث يعقوب في وصفهم بخلاف ما يدعون، حيث استخدم بل الإضرابية قائلا: بل سولت لكم أنفسكم أمرًا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

هذا الحوار أيضًا ينقله القرآن الكريم في مثل هذه الأجواء الأسرية ليحذر من كل ما من شأنه أن يزلزل الثقة في الأسرة، ويؤدي إلى حالة من القضاء على الاطمئنان الذي هو صمام الأمان في الأسرة.

لذلك لم يكن يعقوب في بداية الأمر عندما طلبوا منه أن يسمح ليوسف بالذهاب معهم، فاقدا للثقة بهم، بل كان محذرا لهم من أن يرتكبوا أي حماقة تعود بالمضرة عليهم وعلى الأسرة جميعًا، لكنه الآن بعد أن أتوا بما يزلزل الثقة بهم، وسمهم بما يتناسب مع واقعهم وكذبهم وخداعهم.

حوار الاستدراج والكيد الإلهي

(وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (يوسف/٥٨-٦٢).

هذه خطوة من ضمن الخطوات التسديدية التي سدد الله تعالى بها عبده المخلص يوسف - وإن عبر عنها القرآن الكريم فيما بعد بالكيد من باب المشاكلة- سدّده الله بها لتكون مقدمة من ضمن مجموعة مقدمات ستؤدي بالعائلة التي تشتتت إلى الاجتماع من جديد، فقد يظنّ بأنّ يوسف بفعله هذا قد أدخل الأذى على أبيه وإخوته، لكن يمكن أن يرد هذا بأنه إن سلم إلا أنه متدارك بما هو أكثر مصلحة منه، وهو الاجتماع بعد الافتراق الطويل.

وقد كانت أجواء الحوار التي جرت بين يوسف وأخوته هي أجواء هادئة لم يثر فيها يوسف أي مشكلة ولم يظهر فيها أي انتقام، مع أنه كان قادرا تمام القدرة على ذلك، لما هو عليه من الملك والقدرة، والسلطان.

لذلك فالمستفاد من أجواء هذا الحوار الأخوي من قبل يوسف طبعا، لأنه هو الذي عرف أخوته من دون أن يعرفوه، أن

يعيش الأخوة حالة من المودة والرحمة فيما بينهم، ولا يحاولوا أن يثيروا ضغائن تاريخية قد مضت، إذا كانت مرتبطة بالمسائل الشخصية التي يكون الحكم فيها لصاحبها، بخلاف القضايا المبدئية التي ليس من حق أحد أن يتنازل فيها.

حوار الثقة المتزلزلة

(فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ) (يوسف/٦٣- ٦٦).

يمثّل هذا الحوار حوارًا بين من لدغ من أقرب الناس إليه وهم أبناؤه، وبين اللادغين له، لذلك ما أراد أن يلدغ يعقوب وهو المؤمن من جحر مرتين، فطلب منهم ضمانات ومواثيق تضمن له أنهم لا يفرطون في أخيهم كما فعلوا من قبل مع يوسف، وهذا من مصاديق فقدان الثقة في الأسرة، بسبب موضوعي، وهو الغدر والخيانة اللذين صدرا منهما من قبل.

مع كلّ ذلك لم يظهر لهم أنه أعدمهم الثقة بل أعطاهم مجالا، يكشف عن التوكل على الله تعالى فيما لو ألم بهم حادث شاءت الإرادة الإلهية أن تورده عليهم، كما أنه جعل المسألة كل المسألة ليست في الموثق الذي آتوه به، وإنما في النظر إلى الرقابة الإلهية التي تمثل الشهادة العظمى عليهم، بل على كل الأشياء.

الفائدة التربوية في هذا الحوار

وفي هذا الحوار نلمس الروح الأبوية التي تحاول بقدر الإمكان التفاعل مع الأبناء مهما أخطئوا، لكن في جو من التذكير بالخطيئة والجريمة حتى لا تتكرر مرة أخرى، مع التأكيد على الرقابة الإلهية التي ينبغي أن تحكم الواقع الأسري، بل الواقع البشري العام.

حوار الأبوّة الحانية

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف/٦٧).

تتمثّل في هذا الحوار الحالة الأبوية المفعمة بالعطف، المشحونة بالإشفاق، حيث أن يعقوب كان يسعى أن لا يتعرض أبناؤه إلى ما يؤدي إلي نزول الشر أو الضرر عليهم، حتى ولو لم يكن يعتقد اعتقادا جازما بتأثير هذه الأمور بعيدًا عن المشيئة الإلهية، فهو عليه السلام برغم ما فعله به أبناؤه، إلا أنه مع ذلك قد حافظ على الحالة الأبوية التي ترعى الأسرة وتحفظها في بقيتها الباقية.

وفي هذا الحوار أيضًا يؤكّد عليه السلام روح التوكل التي تقدم التأكيد عليها في الحوار السابق، والتي يستفاد من التأكيد عليها في أكثر من مرة، ضرورة إيجاد هذا الجوّ من الارتباط بالله في الأجواء الأسرية دائما وأبدا في حالات الرخاء والشدة واليسر والعسر.

حوار المكيدة الإلهيّة

(وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ) (يوسف/٦٨- ٧٩).

في هذا الحوار نلمس روحًا من التشدّد النسبي من قبل يوسف حيث أنّه لم يقبل بأي طرح طرحوه عليه، لأنه كما أشرنا كان يريد إنقاذ الأسرة والتمهيد لجمعها بعد التفرق

والتشتت، فكان لزاما عليه أن يواصل في الاستفادة من التسديد الإلهي الذي أمره الله تعالى أن يمضي فيه.

الدرس المستفاد من الحوار المتقدم

الذي نستفيده من هذا الحوار هو أن كل فرد من أفراد الأسرة لا بد أن يحرص على جمع شمل الأسرة ورأب أصداعها، وإن أدى ذلك إلى أضرار ظاهرية قد لا تريح البعض، إلا أن المهم هو السعي لتحقيق المصلحة الأكمل للأسرة، وهذا ينبغي أن يسير أيضًا في ضمن منظومة من الاعتماد على الأسباب الظاهرية التي تلزم الآخرين، كما فعل يوسف في أخذه أخيه، ليكون مقدمة لجمع الشمل من جديد.

كما ربما لنا أن نستفيد أن هناك حالة من الضغينة لا زالت في أنفس أخوة يوسف عليه، وهو قولهم:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، بعد هذه السنين المتطاولة والتي يفترض أنها أنستهم يوسف وقضاياه.

لذلك لا بد للأسرة أن تتجنب الضغينة خصوصا إذا مضى عليها زمن طويل ولا تحاول أن تجتر المشاكل الماضية حتى لا تعيد الأزمة من جديد.

حوار الإخوة الصادق

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ (يوسف/٨٠- ٨٢).

هذا حوار بين الأخوة يمثل حالة الصدق وحالة تحمل المسئولية تجاه الأب، فإن الأخ الأكبر لما علم أنه لا يتمكن أن يرجع إلى أبيه ومعه أخوه الذي أخذه يوسف عليه السلام، أشار على أخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ويتحدثوا معه بمنتهى الصراحة، وينقلوا له الصورة التي تظهر من الحال التي شاهدوها.

وهذا أمر كان ينبغي أن تعيشه الأسرة من بدايات أمرها حتى لا يحصل فيها ما حصل، فلو كانت الصراحة والصدق هما المسيطران على واقعها لما حصل فيها شيء من تلك الأمور التي نغصت صفوها، ولو كانت الثقة المتبادلة هي الحاكم، لقويت وتأكدت من خلال الأساليب التي تعمل على تأكيدها، ولما انجر الأمر إلى مثل هذا الوضع المشين.

وكأن الأخ الأكبر هنا قد عاش حالة من الندم والإحراج في مواجهة أبيه، فقرر أن لا يغادر مصر حتى يطلبه أبوه، أو يحدث الله تعالى له أمرًا حكيمًا من أموره تعالى،

سواءً كان هو الموت أو أمر آخر.

ولكن هذا الأمر يبدو أنه ليس صحيحا لما فيه من البعد عن الأب الذي يعقد المسألة أكثر فأكثر، بخلاف ما لو كان بالقرب من الوالد وبقية الأخوة ربما تمكنوا أن يصلوا إلى رؤية أوضح في حل المشاكل المختلفة التي تمثل مصيرًا مشتركًا لهم جميعًا.

حوار انعدام الثقة

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (يوسف/٨٣- ٨٦).

كان الحوار الثالث من الحوارات التي نقلها القرآن الكريم بعد الجريمة، حوار تزلزل الثقة، مع بقاء مقدار منها، لكن الآن وفي هذا الحوار يظهر أن الثقة قد عدمت، وارتفعت، مع أن أبناء يعقوب كانوا صادقين في دعواهم، وذلك لتكرر حالة الغدر والكذب منهم أكثر من مرة، الأمر الذي جعل الوالد المشفق، أن يظهر لهم عدم تصديقه لما يقولون من خلال قوله بل سولت لكم أنفسكم أمرا، وأن ينعزل عنهم، فيما يعطيه التعبير القرآني في قوله تعالى: وتولى عنهم، وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.

وفي قولهم قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف احتمالان، احتمال الإشفاق على أبيهم مما هو فيه من الحزن والهم والغم، واحتمال التوبيخ وهو الأقرب، لما أنهم كانوا يعيشون هذا التصور في توجيه سلوك أبيهم تجاه يوسف، بل ربما في استخدام لفظتي حرض والهالكين ما يرشد لذلك المعنى، لأن

الحرض هو ما لا يعتد به ولا خير فيه، لإشرافه على الهلاك، فلو أرادوا التسلية والإشفاق لاستخدموا عبارات خير من هذه، وألين منها، بل في قوله ع:إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، إشارة إلى هذه الاستفادة.

الدرس التربوي في هذا الحوار

هو حالة الانفصال بين الأب والأبناء، وخطورتها على وحدة الأسرة، فكأنما القرآن الكريم حين ينقل هذه الصورة يريد أن يحذر من وقوع الأسرة فيها ،أو وصولها لها، فإنها إنما تتحقق بعد مقدمات وممهدات، أوجدها أخوة يوسف فصار الأمر بينهم إلى ما صار إليه، لذلك لا بد لكل أسرة من الالتفات لواقعها حتى لا يقع فيها ما وقع في أسرة يعقوب وبنيه.

حوار الأبوّة الصادقة

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف/٨٧).

هذا الحوار الأبوي يرشد إلى تحكيم الأبوة مهما حصل من الأبناء، ويدعوهم إلى التحاب وتفقد بعضهم البعض حتى لو حصلت أمور تنغص صفو حياتهم، وتكدرها، وفيه دعوة واضحة وصريحة إلى الأمل بالله تعالى في كل الأمور، إشارة إلى أنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء، قد يعيش الإنسان أحيانًا الإحساس تجاهه باليأس.

حوار آخر مع العزيز

حوار التذلُّل

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف/٨٨).

في هذا الحوار نلمس روح التذلل التي عاشها أخوة يوسف عليه السلام، بعد أن كانوا حين أرادوا إلقائه في غيابت الجب هم المسيطرون والمتعززون، نلمس هذه الروح في قولهم يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا، فخطابهم له بيا أيها العزيز، وطلبهم منه التصدق عليهم، يوحي بذلك جداً.

ولا يخفى ما في هذا الحوار من التحذير من الظلم الذي ربما يقع فيه بعض الأخوة تجاه بعضهم البعض، فإن هناك يوما في الدنيا، ينصف الله فيه المظلوم من ظالمه فضلا عن الآخرة.

حوار التسامح

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) (يوسف/٨٩- ٩٣).

يظهر في هذا الحوار البعد الإنساني المتمثل في العفو عند المقدرة، وخصوصا إذا كان بين الأخوة الصلبيين، فإنه قد ذكرهم يوسف بجريمتهم، لا لينتقم منهم، حاشاه، ولكن ليقول لهم لا تثريب عليكم، بمعنى أن القضية إذا كانت ترتبط بي فأنا مسامحكم، وحتى لو كانت لا ترتبط بي شخصيا، بل ترتبط بالله تعالى، فأنا مستغفر لكم الله تعالى ليغفر لكم، فإنه أرحم الراحمين.

ذكرهم يوسف بجريمتهم، لا لينتقم منهم، ويشمت بهم، لكن ليقول لهم إن من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، فلو اتقيتم وصبرتم لكنتم من المحسنين.

ثم أمرهم أن يقوموا بمقدمة أخرى من المقدمات التي أرادها الله تعالى ليأتي بالأسرة جميعا، وهو أمره لهم بأن يذهبوا بقميصه إلى أبيه ويلقوه على عينه ليأت بصيرا، ويأتونه بالأهل أجمعين حتى تجتمع الأسرة وتعيش السعادة بعد العناء.

الدرس التربوي المستفاد من الحوار المتقدم

أن يبذل الأبناء قصارى جهدهم في رفع مشاكل الأسرة، وأزماتها، وأن يعملوا نفوذهم بما استطاعوا إذا كان في جهة طاعة الله تعالى، لتحقيق السعادة والرفاه والهداية للأسرة، كما أعمل يوسف عليه السلام نفوذه في أن طلب من الله تعالى أن يرجع بصر أبيه عليه، وأن يجمع شمل الأسرة بعد ذلك التفرُّق والتشتت.

حوار الأبوّة الحانية

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (يوسف/٩٤- ٩٨).

من المؤسف في هذا الحوار حالة الاستخفاف الواضح من الأبناء بأبيهم، حيث أنه قال إني لأجد ريح يوسف مع إحساسه بموقفهم مسبقا، حيث قال لهم لولا أن تفندون، وهم أيضًا صدقوا هذا الإحساس، بل هو العلم الذي ألهمه الله يعقوب عليه السلام، عندما قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم، وهذا مما ينبغي أن تنأى عنه الأسرة، ولا تقع فيه، لأن الأصل الأساسي في التعامل فيما بين أفراد الأسرة ينبغي أن يبتني على المودة والرحمة، والإحسان والأصول الأخلاقية والقانونية.

كل تلك المواقف من الأبناء تجاه أبيهم لم تؤثر على أبوته ورحمته وعطفه على أبنائه، بل جعلته يصر إصرارا كبيرا على الدعاء لهم وتلمس ما يحقق المغفرة الإلهية لأخطائهم وذنوبهم، وذلك عندما قالوا يا أبانا استغفر لنا قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم، فإن الرواية الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، تقول بأنه قال سوف أستغفر لكم يريد بذلك التأخير أن يؤخرهم إلى ليلة الجمعة ليكون الدعاء أبلغ، والاستجابة أضمن.

حوار التذكير بالنعم الإلهيّة

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ) (يوسف/٩٩- ١٠٠).

هذا الحوار من الحوارات التي تمثل مسك الختام في هذه السورة الشريفة وحواراتها المختلفة والمتنوعة، فهو الحوار الذي يدعو الأسرة إلى أن تعيش في أجواء التذكر للنعمة الإلهية، وهو ما نلمسه في التعداد الذي راح يترنم به يوسف عليه السلام، وهو يؤكد على أن كل تلك النعم تمثل حالة من الإحسان الإلهي بهم جميعا، وهو الأمر الذي ينبغي أن يحمل الأسرة على الشكر للنعمة الإلهية.

الدرس التربوي المستفاد من هذا المقطع القرآني

يمثل هذا المقطع القرآني دعوة صريحة للتأمل من قبل أفراد الأسرة، سواءً كان منهم جميعًا، أو من شخص واحد منهم كما فعله يوسف عليه السلام، عندما ألفت أنظارهم جميعا إلى أن هذه النعمة وهي نعمة الجمع بعد التشتت، فكأن هذا المقطع يريد أن يعيش الأسرة محطات من التفكير في واقعها

لتتأمل فيما فيه من إشكاليات وثغرات محاولة لإصلاحه ومؤكدة على نعم الله تعالى فيه.

الخلاصة النهائيّة من حوارات الأسرة في سورة يوسف

(١) التأكيد على الثقة المتبادلة في الأسرة.

(٢) بث أجواء النصيحة والمشورة الحسنة.

(٣) التحذير من أجواء الكذب والغش والخداع، وكل ما يزلزل الثقة.

(٤) محاولة التعاون في حل المشاكل التي تزعزع استقرار الأسرة وسعادتها.

(٥) عدم القطيعة التامة مهما حصل من المشاكل التي تسيء إلى الأشخاص.

(٦) التسامح والعفو والصفح عن الأخطاء.

(٧) الأمل بالله تعالى في إصلاح ما فسد من العلاقات الأسرية.

الفهرس

مدخل الحوارات الأسريّة . . . ١
حوار الاهتمام والتفقّد زكريّا ومريم عليهما السلام ٥
حوار المبادئ ١١
حوار العقل والبرهان . ١٥
الملحمة الحواريّة في سورة يوسف ٢١
حوارات ما قبل الجريمة الكبرى . ٢٥
حوار المؤامرة والمكيدة . ٢٩
حوار التخفيف من الجريمة . . . ٣٥
حوار الحيلة والكذب. ٣٩
حوارات ما بعد الجريمة . ٤٣
حوار الكذب المكشوف ٤٧
حوار الاستدراج والكيد الإلهي . ٥١
حوار الثقة المتزلزلة ٥٥
حوار الأبوّة الحانية ٥٩
حوار المكيدة الإلهيّة . ٦٣
حوار الإخوة الصادق . . ٦٧
حوار انعدام الثقة . ٧١

حوار الأبوّة الصادقة ٧٥
حوار آخر مع العزيز . . . ٧٩
حوار التسامح ٨٣
حوار الأبوّة الحانية ٨٧
حوار التذكير بالنعم الإلهيّة . ٩١
الخلاصة النهائيّة من حوارات الأسرة في سورة يوسف . ٩٥
الفهرس . . ٩٩